القومية قدر محبب

قلما يفكر المرء بالاشياء البسيطة مع ان في بساطتها سرا يفوق الاسرار. من ذا يفكر باسمه ووجهه؟ انهما قدر يلازمه طوال ثواني حياته. القومية كالاسم الذي يلصق بنا منذ ساعة ولادتنا ومثل قسمات الوجه المقدر علينا حتى من قبل أن نولد في وراثة أبوينا وأجدادنا. اننا نألف اسما ولا نجيب الا اذا نودينا به ولو كنا نفضل عليه أسماء أحسن وقعا. كما نقبل بوجهنا ونستشف به خفايا نفسنا وصورة شخصيتنا ولو انه لايحقق دوما كل شروط الجمال.

متى انتبه الانسان إلى قدره يخرج من حالة الحياة السطحية ويدخل في جريان الحياة الحارة القوية، فاذا رافق عنده هذا الانتباه الى القدر، القبول به، اتخذت حياته اتجاها واتسمت بالرجولة.

القومية للشعب كالاسم للشخص والملامح للوجه، هي قدر قاهر يسيّر مجموعة من البشر في مجرى من الحوادث والظروف فريد، وينسج عليه غلافا من الصفات متميز الشكل. وكما ان من العبث ان يضيع المرء عمره في اللهف والاسف ـ لو ولدت في غير هذا البيت ووجدت على غير هذه الصورة ـ فان من الجهد الضائع أيضا ان يحاول الانسان التحلل من رباط قوميته التي احكمت شدها به أصابع القرون، ولكان أجدى به أن يقول: ما دامت طريقي معينة، ومسرح نشاطي محددا، فلأملأ كل خطوة من خطوات الطريق بأقصى جهودي، ولأظهر على هذا المسرح كل بطولتي، هذا هو قدري فلأكن به خليقا.

هبوا امرءاً تستيقظ فيه قوميته، ولم تتضح له ارادة هذا القدر فيقبل بها ويريدها، أي رجل هو؟ إلى أي تاريخ ينتمي؟ ماذا يهبه الماضي من فخار ويرتب عليه الحاضر من مسؤولية؟ أية أماني تجتذبه إلى المستقبل وتعلو به فوق حدود فرديته وأنانيته؟ هل له مميزات تبين له في االحياة اتجاهه وتضيء له سبيله؟ أو بتعبير آخر، هل له اسم، هل له ملامح؟

انني كلما فكرت في حالة امرىء كهذا ترتعد فرائصي ذعرا من صورة الشقاء

الذي يضمه وصقيع العزلة التي تنأى به. . . أي ضيق في أفقه وأي فقر في روحه، وأية تفاهة وشحوب في حياته؟ يعيش عمره وهو لايدري انه فرع من نبتة تغور أصولها في احشاء الماضي، وتمتد أغصانها على امتداد العصور، ولا يعلم انه واحد من الملايين الذين تعاقبوا خلال القرون والاجيال فحرثوا الارض وشادوا العمران وأعملوا الفكر وأذابوا الارواح وحاربوا وسقطوا صرعى الحروب، كل ذلك ليكتبوا تاريخ أمتهم سطرا سطرا، وليرفعوا بنيانها حجرا حجرا، وليوضحوا عبقريتها ويتابعوا رسالتها. وكل هذه الملايين جاهدت وجالدت وصارعت العواصف وصمدت للنكبات لكي تخرجه من ظلمة العدم إلى نور الحياة، لكي تلده هو، هذا الغافل الناسي، لتغني حياته بحياة الملايين، وتدعم نشاطه بجهود مئات الاجيال ولتحمله مسؤولية الماضي وشرف هذه المسؤولية، لتوجد له اسما ينادى به وملامح تعرفه بين الامم، كيلا يبقى زيدا أو بكرا من الناس، بل ليستطيع القول إذا تفاخرت الشعوب: انا عربي.

قد يكون قاسياً هذا القدر الذي ألقى بنا في عصر الضعف والمذلة والتأخر والتفرقة، بدلا من أن يوجدنا في عصر الوليد أو الرشيد، فنستند إلى دولة عزيزة منيعة، وشعب ناشط موحد الكلمة، وحضارة ساطعة الضياء. وقد يكون القدر أحيانا قاسيا ولكنه عادل أبدا، فهو لايوزع البطولة الا بنسبة الصعوبة، ولا يورث المجد الا بقدر الجهد. فلن تكون في نظره بطولة الذين يجاهدون اليوم ليحرروا بلادهم من استعمار الاجنبي وخطر التجزئة وينشلوها من هوة الجهل والفقر، بأقل من بطولة قتيبة وابن نصير. واذا كان عصر الرشيد والمأمون قد اتسع لانتاج الفلسفات والآداب، فسيكون كل واحد من أبطال اليوم في نظر الجيل الآتي موضوع ملحمة خالدة وتكون تضحيته منشأ فلسفة جديدة.

عام ١٩٤٠